امرأة عمران

(امرأة تحمل حملًا ربانيًا)

امرأة عمران

(امرأة تحمل حملًا ربانيًا)

هي حنا بنت فاقود، كانت عاقرًا لا تلد إلىٰ أن عجزت، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخًا له، فتحركت نفسها للولد وتمنته وقالت: اللهم إن لك علي نذرًا -شكرًا- إن رزقتنىٰ ولدًا أن أتصدق به علىٰ بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمته (**وذكر ابن كثير أنها نذرت ذلك بعد الحمل**) فحملت بمريم، وهلك عمران زوجها وهي حامل بها وهذا النوع من النذر كان مشروعًا عندهم؛ روي أنهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خيّر بين أن يفعل وبين ألا يفعل (**كذا في الكشاف**)[1].

ونذر الأم هنا أن تجعل ما يأتي منها محررًا أي خالصًا مفرغًا للعبادة لخدمة بيت المقدس، فلا ينشغل بأي عمل آخر من شواغل الدنيا، فكان موهوبًا لطاعة ربه والانقطاع إليه.

مناجاة وسؤال الحبيب

إن قصة النذر تكشف عن قلب امرأة عمران وما يعمره من إيمان، ومن توجه إلىٰ ربها بأعز ما تملك، وهو الجنين الذي تحمله في بطنها خالصًا لربها محررًا من كل قيد ومن كل شرك، ومن كل حق لأحد سوىٰ الله سبحانه.

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران:35].

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران ينم عن ذلك الإسلام الخالص لله والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه.

مناجاة شكر واعتذار:

لما استجاب الله دعاءها حملت ثم وضعت، ولم تنسَ شكر الله علىٰ نعمته بل زادت في عبادتها ومناجاتها لله تعالىٰ في قرب ومودة وهي تقول: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عمران:36].

---

(1) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري 1/ 175.

تتحدث إلىٰ القريب المجيب وكأنها تعتذر إليه، ألم يكن لها ذَكر ينهض بالمهمة.

والكثير من الناس يرغب في الذكر لأسباب شتىٰ؛ منها: أن يكون امتدادًا له، ويحمل اسمه وذريته بعد موته، أو يكون سندًا له في الحياة عند الكبر – وقد كانت امرأة عمران عجوزًا مات زوجها وهي حامل؛ ولكنها لم تتمنَّ الذكر لأي من هذه الأسباب.

ليس الذكر كالأنثى:

إنها حقيقة تذكرها امرأة عمران في مناجاتها، ويعترف بها الشرع، ويرتضيها العقل والمنطق والفطرة.

وقد قصدت أن الأنثىٰ ليست كالذكر في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصىٰ.

وكان الأمر في دينهم أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان عليه خدمة الأبوين؛ فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الانتفاع، ويجعلونه محررًا لخدمة المسجد، ولم يكن أحد من الأنبياء إلا ومن نسله محررًا لبيت المقدس، ولم يكن يحرر إلا الغلمان، ولا تصح الجارية لما يصيبها من الحيض والأذىٰ فتحتاج إلىٰ الخروج.

وأما بمنطق العصر فليست الأنثىٰ كالذكر أيضًا في الصبر علىٰ العمل الشاق؛ لذا أوجب الشرع صيانتها وتكريمها بعدم إلزامها بالإنفاق، وما دخل علينا من مصطلحات غريبة مثل الجندر وغيره هي مفاهيم مضادة للفطرة، وما هدفها إلا القضاء علىٰ العنصر البشرىٰ.

الإيمان حرز من الشيطان:

دعت امرأة عمران في مناجاتها ﴿..وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:36].

فليست القضية ذكر وأنثىٰ؛ إنما الأهم من ذلك هو الصلاح، وقد فطنت هذا جيدًا، فدعت بأن يحفظها –ليست وحدها – وإنما معها ذريتها من الشيطان، فالرغبة الأصلية في الحمل إنما كانت لإنشاء ذرية صالحة، تزرع الخير وتخدم الدين.

وقد حفظ الله مريم وابنها – يقول الرسول ﷺ: (**ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان**

حين يولد فيستهل صارخًا من مسه إياه إلا مريم وابنها)[1].

التسمية:

ومن فرط شعورها بقرب ربها تتحدث معه حديث سمر قائلة ﴿.. وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ... ﴾[آل عمران:36] وقد تخيرت لابنتها اسمًا طيبًا كما هي سنة نبينا ﷺ وشرع من قبلنا في تسمية المولود يوم ولادته.

وذكر السهلي أن القرآن لم يذكر امرأة باسمها إلا مريم ابنة عمران؛ فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعًا لحكمة ذكرها بعض الأشياخ أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ، ولا يبتذلون أسماءهن؛ بل يكنُّون بـ: الزوجة وبالعرس وبالأهل والعيال، ولم يصونوا أسماء الإماء عن الذكر فصرح الله باسم مريم لما قالت النصارىٰ في مريم تأكيدًا لعبوديتها وإجراء الكلام علىٰ عادة العرب في ذكر إمائها، وتكرر ذكر اسم عيسىٰ منسوبًا إلىٰ أمه لتشعر القلوب بنفي أبوة الله وبنزاهة أمه الطاهرة عن مقالة اليهود.

اصطفاء إلهي:

حينما نذرت أم مريم ما في بطنها لربها طلبت منه في خشوع وتضرع أن يتقبل هذه الوليدة حين قالت: (فَتَقَبَّلْ مِنِّي)، أي: ما نذرته لك والتقبل هو أخذ الشيء.

علىٰ وجه الرضا، فاستجاب الله دعاءها، وتقبل منها نذرها، واصطفاها من بين نساء زمانها، وجعلها إمامة في الخير والصلاح.

والاصطفاء علاماته ظاهرة؛ حيث تقبّل الله مريم من أمها بقبول حسن، وهيأ لها النشأة الطيبة، وأجرىٰ لها من الكرامات ما يبهر ألباب المؤمنين، وكان في زمان مريم هذا أربعة آلاف محرر مثلها، لم يشتهر خبر أحد منهم اشتهار خبرها، وكان هذا الاختيار المبكر وهي في عالم الغيب جنينًا في بطن أمها.

قال ابن عباس في الآية: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[آل عمران:37]، أي: سلك بها طريق السعداء، والقبول هنا من الله وصف بالحسن؛ حيث قبل تلك الأنثىٰ علىٰ غير المعتاد لصدق نية الأم، وحيائها من ربها، فأنبتها نباتًا حسنًا،

(1) رواه البخاري في صحيحه 4/ 1655، رقم (4274)، كتاب تفسير القرآن، سورة آل عمران، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وجعل شكلها مليحًا جميلاً بهيجًا، ويسَّر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين، وهذا التشبيه لنمو المولود بنمو النبات فيه أكبر دلالة علىٰ أهمية التهيئة البيئية للصغار حتىٰ يتسنىٰ حسن تربيتهم وإنباتهم نباتًا حسنًا مبرءًا من العيوب والآفات والأمراض، ومرض النبات ينتهي بموته وذهابه مع الريح، وأما مرض القلب فإنه الهلاك الماحق.

ملامح الشخصية:

1- إخلاص النية لله في الحمل، وهذه أولىٰ خطوات النجاح لتربية صالحة. والصلة القوية بالله تعالىٰ تبدو واضحة في كثرة العبادة والتبتل.

2- علو الهمة؛ فلم تطمح أم مريم من مولودها أن يكون غنيًا أو فتيًا أو صحيحًا؛ وإنما إرادت له مكانًا مرموقًا لعبادة الله تعالىٰ.

فلتضع الأم هدفا نبيلا ً عاليًا لابنها وهو في بطنها.

3- البصيرة الواعية المتمثلة في حسن اختيار الطلب، والدعاء من الله بحفظ هذا المولود وذريته من الشيطان، وأم تطلب حفظه من الفقر والمرض وغير ذلك، فسرقة الإيمان من القلوب أكبر من سرقة الأموال من الجيوب .

4- حسن اختيار اسم المولود.

5- النظرة البعيدة إلىٰ المستقبل جعلتها تفكر في ابنتها وذريتها وما يمكن أن يقدمونه من بعدها لخدمة هذا الدين.

خواطر وعبر:

* إيمان المرأة يصل إلىٰ جنينها وربانيتها تؤثر في أولادها وصلاحها يمتد إلىٰ ذريتها جميعا فلنصلح أنفسنا أولا لتصلح ذريتنا من بعدنا.
* تربية الأبناء تبدأ من الحمل والدعاء لهم يستمر إلىٰ الأبد ويعطىٰ أثره ولو بعد حين.
* الأنثىٰ ليست كالذكر فلها طبيعة خاصة من رقة المشاعر والحس الرهف فلنحافظ عليه كما خلقه الله تعالىٰ.

* * *